الثابت المنتصر

بلال بن رباح

رضي الله عنه

تمسك بالحق مهما تكن الظروف ..

ويوما ما ستنتصر

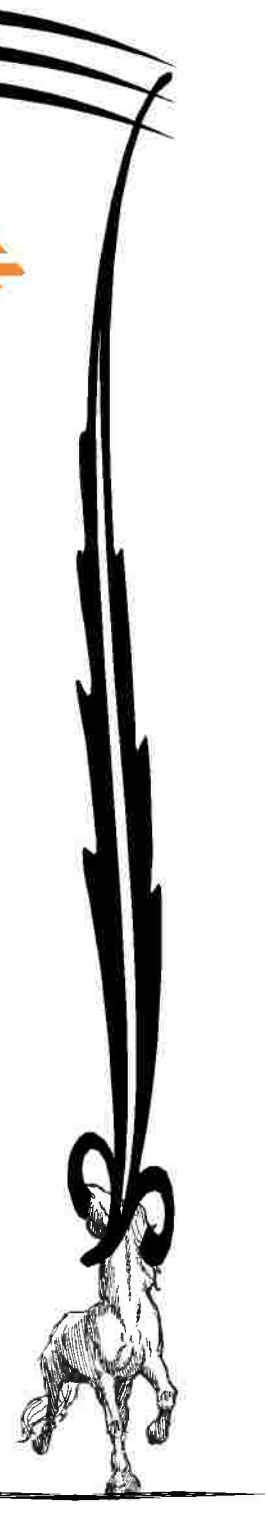

«الفاكهة سيدي ».

في تواضع شديد.. نطق بها الخادم بلال، وهو يقدم بعض أصناف الفاكهة لسيده أمية بن خلف الجمحي؛ الذي كان يتسامر مع بعض أصدقائه في منزله، والذي لاحقه بحدة قائلا:

– الخمر يا بلال.. فاكهة دون خمر كطعام بلا ماء، أسرع بها.

انتفض بلال ملبيا سيده قائلا:

– حالا سيدي.

وانطلق بلال مسرعا ليصب أكواب الخمر لأمية وأصحابه.

كانت ذرات المشروب تصطدم بأكوابه كما تصطدم كلمات أمية وأصحابه برأس بلال...

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يدور فيها رأس بلال مما يقوله أمية وأصحابه، فلقد تكرر الحديث نفسه مرات متعاقبة حتى ظن أن تفكيرهم قد تمركز في موضوع واحد..

محمد ورسالته.

رجل يدعي النبوة ويتحدث عن عبادة إله واحد، يتحدث عن المساواة بين الناس ويدعوإلى الأخلاق.

كان يسمعهم يتحدثون عن أخلاقه..عن صدقه وأمانته ووفائه وشهامته وكرمه..

كانوا يتحدثون ويتحدثون.. ثم لا يعيرون الأمر اهتماما في النهاية، فهم يرونه كما يرون الحنيفيين في مكة من أمثال زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وأمية بن الصلت..لا مشكلة منهم ما داموا لم يتعرضوا لعقائدهم وأصنامهم بسوء..

إلا أن كثرة حديثهم عن محمد جعلت «بلالا »يشعر أن هناك قلقا خفيا لديهم من الرجل، وأن اختلافا ما بينه وبينهم.

لقد أحس أن هذا الرجل يختلف عن جميع أهل مكة..فهذا الرجل لديه أفكار جديدة على بيئة العرب؛ جعلت سادة القوم لا يستطيعون إغفاله من أحاديثهم..

لقد سمع بلال حديثا، كان أقوى من أن يتجاهله بلال العبد، وأجبره إجبارا على التفكير بجدية في الأمر..

ويا للعجب.. بلال العبد الحبشي يفكر !!

لقد كانت العبودية في الجاهلية تمحو شخصية العبد تماما، فلم يكن بأي حال من الأحوال يتساوى بالبشر، فلسيده الحق في أن يشتمه ويهينه ويضربه، بل ويقتله دون حساب من أحد، هو في عرفهم وحسب قوانينهم ملك له، يتصرف فيه كما يشاء، دون مساءلة أو مراجعة من أحد...

كانت العبودية تعني محو الهوية والكرامة والآدمية، وتجعل منتهى أمل العبد هو أن يعيش..

فقط يعيش..

إلا أن « بلالا » فعل ما لم يتوقعه أحد..

لقد فكر...

ولم يعمل بلال عقله في أمر هين بسيط.. بل في أمر غاية في الخطورة والصعوبة والتحدي..

الدخول في دين جديد..

تفكير كشف عن شجاعة نفسية كبيرة لعبد ضعيف أمام سيده الظالم المتغطرس..

ولقد اتخذ بلال قراره بالفعل..

سيذهب إلى محمد ﷺ ليسلم بين يديه.

لقد لبى بلال الدعوة مبكرا.. ليسلم في السنة الأولى من دعوة النبى ﷺ، فكان من العشرين الأوائل الذين دخلوا الإسلام ، بل إن «بلالا» تفوق في أنه لم يدعه أحد مباشرة إلى الإسلام، كما فعل الرسول ﷺ مع خديجة وأبي بكر وعلي، وكما فعل أبو بكر مع عثمان بن عفان والزبير بن العوام وغيرهما..

لقد أسلم بلال بجهد ذاتي، وبحديث غير مباشر من بعيد، من سيده أمية بن خلف.

الآن.. أصبح بلال شابا مسلما في الثانية والثلاثين من عمره..

ظل بلال سنتين يخفى إسلامه كما أمر رسول الله المسلمين، يذهب إلى رسول الله متخفيا ليستمع إلى ما نزل من وحي السماء، ويثلج صدره بكلام الله ويتقوى على حياته الصعبة بزاد إيماني فريد.

في كل يوم..كان يذهب إلى أحد شعاب مكة، ليصلي ركعتين في الصباح، يتقوى بهما على مشاق الحياة، حتى يركع ركعتين مثلهما في المساء..

لكم كانت حاجة العبد الفقير المقهور إلى فهم الحياة من جديد، لكم كان اشتياقه إلى جرعات شبه يومية من الكرامة والتعامل الكريم من إخوانه ومن رسول الله ﷺ، لكم كان يحلم أن يشعر أنه إنسان.. لا فرق بينه وبين غيره من البشر.

أبشر يا بلال..لقد أصبحت أخا لأبي بكر وعثمان بن عفان ولرسول الله ﷺ.. سيد الخلق أجمعين.

لا فرق بينك وبينهم إلا بتقواك وعملك..

أي حرية وأي عدل فاز بهما بلال..

أشعر أن «بلالا» في كل مرة يقابل فيها الصحابة والنبي ﷺ، كان يريد أن يخرج ليقول بأعلى

صوته لمكة كلها: أنا مسلم..

وربما يتأكد لدينا هذا الإحساس، عندما نعلم أن «بلالا» قد بادر بإعلان إسلامه بعد أن أمر الله نبيه محمدا ﷺ بالجهر بالدعوة ، حتى كان بلال سابع من يعلن إسلامه، من بين أكثر من مائة مسلم، كانوا قد أسلموا في الثلاث سنوات الأولى من عمر الدعوة.

شجاعة أخرى نادرة لعبد ضعيف، لا يصنعها إلا إيمان قوي، بدين عظيم كالإسلام...

وكان أشد الناس ذهولا من سماع الخبر..

أمية بن خلف..

لقد جن جنونه..واعتبرها إهانة شديدة لكرامته، بل وكرامة بني جمح كلهم..

لقد عصاه عبده..وأي عصيان؟!

إلا أن ثورة أمية بن خلف لا تلبث أن تهدأ، بعدما شعر أن المسألة ربما تكون إعجابا لعبد لا يعرف شيئا برجل يقول عن نفسه: إنه نبي. فظل يطمئن نفسه ويخفف من لهيبها المشتعل؛ وهو يقول لها حديث من يخدع نفسه ليستريح:

– ومع هذا فلا بأس.. إن شمس هذا اليوم لن تغرب، إلا ويغرب معها إسلام هذا العبد الآبق.

إلا أن شمس هذا اليوم غربت، وأيام بعدها.. ولم يغرب معها إسلام العبد بلال..بل ازداد إشراقا على إشراقه، جعل ثورة أمية تشتعل من جديد، وجعله يقرر الانتقام من عبد ارتكب في نظره جريمة حرية التفكير واتخاذ القرار..

لقد قرر الانتقام كأشد ما يكون..

وأخذ أمية يتفنن في ألوان من التعذيب يعذب بها «بلالا»، بصورة جعلته أشهر من عذب في التاريخ.. ليحكي للأجيال قصة صمود عبد حبشي، تسلح بالإيمان أمام سيد يملك كل وسائل القوة.

وبدأت المعركة..

في صحراء مكة.. وفى وقت الظهيرة.. ودرجة الحرارة أكثر من خمسين درجة مئوية.. يأمر أمية رجاله، فيجردوا «بلالا» من ملابسه.. ويلقون به على الحصى المستعر. ولكى يلتصق جسده بالأرض يذهب بسرعة عدد من الرجال الأشداء ليحملوا حجرا ضخما، وهو يكاد يلتهب من شدة حرارته، فيلقونه على صدر بلال..

بالتأكيد سينهار بلال من أول يوم.. ما الذي يجعل عبدا حبشيا يتحمل كل هذا العذاب من أجل أفكار..مجرد أفكار ؟!

هكذا كان يفكر أمية بن خلف..

وهكذا وضع خطته.. لن يمر يوم أو يومان ويستسلم.. ويمحو من ذاكرته كل ما سمع من كلام محمد.

لكن الأيام تمر والعذاب يشتد.. وبلال لا يستسلم.

ويجن جنون أمية بن خلف .. ويأمر رجاله بتغليظ العذاب على بلال..

وفي كل يوم كان بلال ينتصر، ويهزم أمية.. حتى أن بعض رجال أمية رقوا لحاله ، فوعدوه أن يرفعوا عنه العذاب، شرط أن يذكر آلهتهم بخير !!

يا لله..لقد انهزم الجبابرة أمام العبد الحبشي المسكين – من وجهة نظرهم –، ولم يعد حلمهم أن يصرفوا «بلالا» عن أفكاره ومعتقداته الجديدة.لقد أصبحت أمنياتهم- كل أمنياتهم- أن ينطق العبد بلال كلمة – مجرد كلمة – تحفظ لهم كبرياءهم أمام أهل مكة.

أبشر يا بلال.. لقد نجحت في الاختبار وانتصرت على أعدائك، ولن يخرجك من أتون العذاب إلا كلمة.. كلمة واحدة.. قلها بلسانك.. لا بقلبك.

لا تخف يا بلال..لقد فعلها عمار بن ياسر من قبل، وأقره الرسول ﷺ ولم يغضب منه.. بل وقال له: «وإن عادوا فعد ».

قلها يا بلال..فالجميع سيعلم ويقدر الموقف، بأنك لم تكن لتقولها إلا تحت ضغط تعذيب شديد، لا يتحمله بشر..

لكن« بلالا» فاجأ الجميع..

فاجأ رجال أمية، وأمية، بل والتاريخ كله.. إنه يرفض العرض !!

لن يقول بلال ولو مجرد كلمة، تعظم حجارة لا تضر ولا تنفع..

لقد تصرف بلال تصرف العظماء الأحرار..ورفض العرض المغري جدا، ليواصل المعركة حتى النهاية، وظل يردد كلمة واحدة، أصبحت رمزا للصمود عبر الأجيال:

أحد.. أحد.

ما أ بسطك يا بلال.. وما أعظمك !!

بل إن «بلالا » لم يكتف بذلك فقط.. بل إنه بدأ يهاجمهم نفسيا بسلاح يحسن استخدامه..

سلاح السخرية..

فعندما ضاقوا به وتملكهم الغيظ جلدوه.. وقالوا له في انفعال وغضب:

– قل كما نقول.

فإذا به يرد عليهم بسخرية المنتصر:

– إن لساني لا يحسنه !!

كان طبيعيا بعدها أن يفقد أمية أعصابه، فيأمر بعض صبيان مكة أن يربطوا عنق بلال بحبل في وقت الظهيرة، ويطوفوا به جبال مكة وشوارعها.

لكن «بلالا» انتهزها فرصة سانحة، ليعلن أمام الجميع انتصاره، عبر رسالته البسيطة والوحيدة والجميلة والرقيقة..

أحد.. أحد..

يا له من درس إعلامي خطير.. استخدم كلمة واحدة بسيطة يفهمها الجميع، ليعلن انتصاره أمام مكة كلها..

وكأنه نشيد وطني لدولة منتصرة..

أحد أحد.. فرد صمد..لا والد ولا ولد.

وينهار أمية غيظا وانفعالا ودهشة وعجزا، فيلكز «بلالا» بقوة وهو يهتف في حنق:

– أي شؤم رمانا بك يا عبد السوء؟! واللات والعزى.. لأجعلنك للعبيد والسادة مثلا.

وألقى بلال عليه سهمه الساخر وهو يضحك ضحكة الانتصار من داخله قائلا:

أحد.. أحد..

لقد أوشكت المعركة على الانتهاء..

ولكن ماذا يفعل أمية أمام هذه البطولة النادرة، التي لم يكن ليتوقعها أو يتخيلها من عبد كان تحت يديه سنوات وسنوات؟

لقد فعل كما يفعل كل الطغاة عندما تنفذ ذخيرتهم..

التفاوض..

تصوروا..أمية بن خلف لجأ للتفاوض مع بلال..

أمية بن خلف يتفاوض مع عبده..

أي انتصار حققته يا بلال، أيها البطل الحبشي ؟!

أي افتخار وعزة تتحدث بها بلادك (أثيوبيا) عنك إلى اليوم، وإلى يوم الدين ؟!

ويقوم بدور المفاوض رجل يقوم بدور تمثيلي على بلال، فيتقمص دور المشفق الناصح الأمين، قائلا لبلال أمام أمية:

– خل عنك يا أمية.. واللات لن يعذب بعد اليوم، إن «بلالا»منا، أمه جاريتنا، وإنه لن يرضى أن يجعلنا بإسلامه حديث قريش وسخريتها.

ويرد بلال على المكر الساذج والتمثيل المفضوح بكلمة واحدة..اختزل فيها كل الكلمات وكل المعاني..

أحد..أحد..

ولا يجد أمية أمامه إلا أن يستمر في مسلسل التعذيب، ليعلن في كل يوم عجزه الكامل أمام عقيدة عبد له، ظل سنوات وسنوات يأمره فيطيع.

لكن اليوم التالي.. كان هواليوم الأخير في المعركة..

المعركة التي كان يتمنى «أمية بن خلف» من كل قلبه أن تنتهي بأي شكل يحفظ به شيئا من كرامته..

ولقد جاء أبو بكر الصديق..لينقذ أمية من ورطته ، وينقذ «بلالا» من عذابه المستمر..

- أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟!

هتف بها أبو بكر في غضب شديد للرجال الذين يعذبون «بلالا» وهو يمر بهم في صحراء مكة، وتابع وهو ينظر لأمية بن خلف في حدة قائلا:

- خذ أكثر من ثمنه واتركه حرا.

وكأن أبو بكر قد ألقى طوق نجاة لأمية، وهو يستغيث من الغرق في عرض البحر منذ أيام..فإذا به يوافق..

وعلى الفور...

لكنه أبي إلا أن يهين «بلالا» إهانة أخيرة، فأخذ يقول وهو يلقي ببلال إلى أبي بكر في غضب:

- خذه، فواللات والعزى، لوأبيت إلا أن تشتريه بأوقية واحدة لبعته بها.

فرد عليه أبو بكر وهو يتأبط أخاه « بلالا» في حنان:

- والله لوأبيتم أنتم إلا مائة أوقية لدفعتها.

بالتأكيد نسى بلال عذاب الدنيا كلها في هذه اللحظة، وهو يرى أبا بكر الصديق -وهوالرجل السيد في قومه الغني المحبوب- يأتي إليه ليحرره ويتأبط ذراعه ويرفع شأنه أمام سيده، وأمام مكة كلها.

عفوا.. الذي كان سيده.

فلقد أصبح بلال منذ هذه اللحظة حرا..

لقد حرره أخوه أبو بكر الصديق..

يا لله..هذا ما كنت تحارب من أجله يا بلال.. هذا ما كنت تتحمل من أجله العذاب أياما وشهورا..

الكرامة والأخوة والحب والتضحية..

أبشر يا بلال بجائزتك الكبرى..

الحرية..

من الآن..أنت مثل كل أحرار مكة.. من الآن.. لن يستطيع أحد إلا أن يخاطبك كإنسان.

لطالما وددت يا بلال أن تعامل كإنسان !

لقد كان ذلك اليوم يوم عيد لبلال.. شاركه فيه أصحابه.. أصحاب رسول الله ﷺ.

وأخذ بلال ينظر للحياة نظرة أخرى.. ويتنفس هواء مكة برائحة مختلفة، وهو يحضر اللقاءات المستمرة مع رسول الله ﷺ وأصحابه في دار الأرقم، يتلقى فيها الدروس الإيمانية في فهم الحياة والثبات على الحق، وحب الجنة وثمرة التضحية، ظل يتلقى وينقل ثباته لإخوانه يوما بعد يوم.

كانت الأمور تسير في اتجاه واحد: قريش تنوع أساليبها في الضغط على المسلمين من كل اتجاه، وبكل الطرق الممكنة.

ووصل التعذيب إلى درجة لم يكن ليصدقها عقل، حتى خشي الرسول ﷺ أن تقدم قريش على حملة إبادة للمسلمين تستأصل فيها الدعوة.. فيأمر الرسول ﷺ المسلمين في رجب من السنة الخامسة من البعثة بالهجرة إلى الحبشة.

بلد بلال بن رباح...

تكريم آخر لبلال..المسلمون يفرون بدينهم وينقذون دعوتهم في بلد بلال..

لقد كان العرب يتعالون على الأحباش ويعتبرونهم درجة ثانية لا يرتقون إلى مستواهم..

الآن يفهم المسلمون أن الجميع سواسية..وأنه لا يجوز أن يهين إنسان إنسانا بسبب لون بشرته..

وتستمر مفاجآت بلال..فلا يهاجر إلى الحبشة.. لا في الهجرة الأولى ولا الثانية...

لقد آثر أن يبقى مع رسول الله ﷺ.. ليتذكر الفرق بين العبودية والحرية كلما رآه..

وفي السنة السابعة من البعثة، يضرب المشركون حصارا اقتصاديا واجتماعيا رهيبا على المسلمين..

ولمدة ثلاث سنوات كاملة.

ويجتمع المسلمون مع بني هاشم في شعب بني هاشم..

وكان بلال قريبا جدا من الرسول ﷺ..

كان يذهب على أطراف الشعب ليتلمس شيئا من الطعام، يخفيه تحت إبطه ليجري به لرسول الله ﷺ..

هكذا كان يحكي الرسول ﷺ فيقول:

«لقد أخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت علي ثلاثون

ما بين ليلة ويوم، ما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد، إلا شيئا يواريه إبط بلال».

ألهذه الدرجة كان بلال قريبا من رسول الله ﷺ؟.. فهوالذي يذهب إليه بطعامه في أحلك الأوقات وأشدها على الرسول ﷺ والمسلمين ؟

وفي السنة الثالثة عشرة من البعثة كانت الهجرة إلى المدينة..

وظل بلال قريبا من الرسول ﷺ، محافظا على المسافة نفسها التي تعينه في الشدائد وتنقل عنه أحاديثه وأفعاله إلى البشرية كلها، حتى كثرت رواياته عنه ﷺ.

ولقد كان الرسول ﷺ يعرف موهبته الجميلة في صوته الندي، ولكنه كان يدخرها ليوم ما في المدينة..

يوم يرفع أول أذان للصلاة في الكون كله..

فلقد رفعه بلال..

أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدا رسول الله...

كم كان يحب بلال هذا النداء .. كم كان يعشقه ويشعر أنه جزء من كيانه، لا يرتاح إلا حين يصيح به للمسلمين في اليوم خمس مرات..

لقد عشقها كما عشق من قبل كلمته الأثيرة..

أحد ..أحد..

أتظنون أنه نسيها ؟

أبدا لم ينسها.. كما لم ينس أمية بن خلف..

أبدا..

فلقد ساقته له الأقدار في بدر.. بعد أن أراد ألا يخرج، جبنا وخوفا من الموت، فظل عقبة بن أبي معيط -الذي طالما كان يدفعه دفعا لتعذيب بلال- يدفعه إلى الخروج.. فظل يسخر منه ويمرر فوقه البخور وهو يقول له في سخرية لاذعة:

- تبخر.. تبخر كما تتبخر النساء!!

ويتورط أمية بن خلف للمرة الثانية ، ويضطر اضطرارا للخروج خوفا من اتهامه بالجبن...

ويذهب إلى بدر..حيث بلال بن رباح..

هنا المواجهة متكافئة..

رجل لرجل..

لكن أمية اكتشف أنه لم يكن رجلا..

خصوصا بعد الصيحة التي كادت تخرق أذنيه في جانب من المعركة..

يا لله..لطالما سمع هذه الكلمة من قبل.. لكنه كان يسمعها هناك في مكة.. ولم يكن يتخيل يوما، أن تجرؤ على الخروج خارج حدودها..

لكنها خرجت...وجاءت إليه من جديد..

وكأنها جاءت إليه وحده..

هل تعرفون ما هي هذه الكلمة ؟

أحد أحد.. رددها بلال في أحد جوانب المعركة، ورددها المسلمون وراءه ليتذكروا الصمود والثبات.

لقد أصبح بلال رمزا للصمود..

زلزلت الصيحة أمية بن خلف، وشعر بالهزيمة منذ البداية..وكلما اشتد القتال كان أمية يشعر أن نهايته تقترب.. وعندما لمح عبد الرحمن بن عوف، احتمى به ورجاه أن يكون أسيره..

أترضى أن تكون أسيرا يا أمية ؟!

أترضى أن تكون في موقع أقرب إلى موقع عبدك القديم.. بلال ؟!

حتى إذا رضيت.. فلن يرضى بلال !!

تنبه يا أمية.. فبلال اليوم أصبح يتحكم في مصيرك، كما كنت تريد أن تتحكم في مصيره بالأمس..

بلال اليوم سيتخذ قرارا بشأنك لا رجعة فيه..ولا نقاش..

أرأيت يا أمية من أصبح العبد.. ومن أصبح السيد ؟!

- رأس الكفر أمية بن خلف.. لا نجوت إن نجا.

صاح بها بلال بن رباح وهو يمر بطريق أثناء المعركة، وقد رأى عبد الرحمن بن عوف يأخذه إلى مكان للأسرى.. وما إن رآه، حتى رفع سيفه يريد أن ينهي حياته التي سخرها لإيذاء المسلمين ومحاربة دين الله.

إلا أن عبد الرحمن بن عوف أشار إليه بالتوقف وهو يصيح:

- أي بلال.. إنه أسيري.

فإذا ببلال يرد عليه في دهشة:

- أسير والحرب مشبوبة دائرة ؟!

لقد شعر بلال أن أمية يريد أن يسخر منه كما كان يفعل بالأمس في صحراء مكة..ولم يكن ليستسلم للعبته المكشوفة ومكره المفضوح ..

لقد انتهى وقت السخرية يا أمية.

ولكن ماذا يفعل بلال؟ وكيف يهجم على أمية وهو في حمى أخيه عبد الرحمن بن عوف؟

لجأ بلال إلى حيلة تحدث اضطرابا في هذه النقطة؛ فيصبح الأمر خارج سيطرة عبد الرحمن بن عوف، فصاح بأعلى صوته فيمن حوله:

- يا أنصار الله.. رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا.

وما إن سمع المسلمون الاسم، حتى اتجهوا نحوه بسيوفهم، فلم يستطع عبد الرحمن بن عوف أن يصنع شيئا.

ونظر بلال إلى أمية وهو تحت ظلال السيوف، لينقض عليه بسيفه بكل قوته؛ فيرديه قتيلا..

ترى هل تعامل بلال مع الموقف بنفسية المنتقم.. ونحن نعرف عن الرسول ﷺ والصحابة أنهم كانوا يتعاملون بنفسية المتسامح العفو..

لا أظن..إن التسامح لا يكون في وقت حرب بل في وقت سلم.. وعندما ظن بلال أن ما فعله أمية ما هوالا حيلة، تعامل معه بنفسية المحارب.

وما كان ظن بلال بأمية، إلا من أثر تاريخ طويل معه من الغطرسة والكبر والخداع..

أحد.. أحد.. ما زالت تنتصر..

وما زالت تهزم من سخر منها..

ويكمل البطل بلال رحلته مع الرسول ﷺ في المدينة، فيحزن في أحد، ويفرح في الأحزاب، ويفكر في صلح الحديبية.. حتى تأتي السنة الثامنة من الهجرة..

فتح مكة..

أحد أحد.. تدخل مكة الآن يا بلال..

أتذكر يا بلال المكان الذي كنت تعذب فيه ؟ أتذكر يا بلال طرقات مكة وشعابها التي شهدت سخرية الأطفال منك وهم يجرون عنقك بالحبل حتى ظهر أثره في عنقك؟

لعلها كانت تتعذب مثلك يا بلال..

ولعلها الآن فرحة مثلك يا بلال..

ولعلها الآن تنتظر صوتك يا بلال...

نعم يا بلال.. ستصبح أول من يرفع الأذان بمكة، كما كنت أول من يرفعه بالمدينة.

لقد أمر رسول الله «بلالا» أن يرفع الأذان من فوق الكعبة.

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله...

صعد بلال فوق الكعبة وهو يدوس الأصنام بقدميه ليعلنها قوية صريحة، وسط ذهول أهل مكة كلهم..

بلال العبد الحبشي.. يرفع أذان المسلمين ؟

بلال بالإسلام.. ينتصر..

بلال يؤذن وأسياد قريش يسمعون.. وليس لهم إلا أن يسمعوا..

وإذا كان لابد من الكلام فليكن همسا.. كما كان «عتاب بن أسيد» يقول:

- لقد أكرم الله أسيدا، ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه.

بالتأكيد كان الأمر صعبا على بعض من أهل مكة، وبالأخص سادتها..

كما كان صعبا على بلال والصحابة أن يعودوا مرة أخرى إلى المدينة..

لكن لا مفر..

وعاد بلال مع الرسول ﷺ ليرفع صوت الأذان ثلاث سنوات.. ويرفع معها راية الإسلام في كل مكان وفي كل غزوة يغزوها مع الرسول ﷺ، وفي كل يوم..كان يزداد قربا وحبا للرسول ﷺ، حتى شهد له الرسول ﷺ شهادة لحياته كلها..

لقد وصفه الرسول ﷺ بأنه رجل من أهل الجنة..

يا لله.. أي سعادة تشعر بها يا بلال ؟ وأي فخر يصيب المرء عندما يشهد له رسول الله ﷺ بأنه من أهل الجنة وهو حي ؟

لكن التواضع كان سمة أخرى لبلال، إلى جانب البطولة والصمود..

إنه لم ينس يوما ما فعله له أبو بكر..

لم ينس يوما أن أبا بكر أهدى له الكرامة، وأشعره بمعنى الأخوة والحب..

لقد سمع يوما أن أناسا يفضلونه على أبي بكر، فإذا به ينزعج قائلا:

- كيف يفضلوني على أبي بكر، وإنما أنا حسنة من حسناته؟!

أي وفاء وأي تواضع وأي أخوة يا بلال ؟!

ذهب يوما يخطب لنفسه ولأخيه زوجتين فقال لأبيهما:

- أنا بلال، وهذا أخي، عبدان من الحبشة، كنا ضالين فهدانا الله، وكنا عبدين فأعتقنا الله، إن تزوجونا فالحمد لله، وإن تمنعونا فالله أكبر.

إن هذا الموقف بالتحديد، لهو موقف يتحدث فيه المرء عن مفاخره..عن أعماله وبطولاته..عن مميزاته و عما يملكه..

لكن « بلالا» فضل أن يذكر فضل الله عليه..

«كنا ضالين فهدانا الله..وكنا عبدين فأعتقنا الله..».

لقد زاده كلام الرسول ﷺ تواضعا وحبا لـه..وكـان كلـما زاده الرسـول ﷺ شـكرا، زاد حبـا وتواضعا..

أصبح رسول الله ﷺ فدعا بلالا، فقال:

« ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي»....

فقال بلال:

ما أذنت قط..إلا صليت ركعتين، وما أصابني حدث إلا توضأت، ورأيت أن لله علي ركعتـين أركعهما.

فقال: «بها».

عن أنس، أن النبي ﷺ قال:

«السباق أربعة: أنا سابق العرب، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبشة، وصهيب سـابق الروم».

لقد تحدث الرسول ﷺ عن بلال كثيرا..

إلا أن هذا الحديث.. شاء له الله أن يتوقف نهائيا ودون رجعة، في يوم الإثنين، الثاني عـشر مـن شهر ربيع الأول، في السنة الحادية عشرة من الهجرة..

لقد مات الرسول ﷺ..

ودارت الأرض بالصحابة، حتى ظنوا أن ما يحدث كابوس مفزع رهيب.

ودارت الأرض ببلال.. وزاد اضطرابه وحيرته كلما اقترب موعد صلاة الظهر..

لأول مرة سيرفع بلال الأذان دون وجود رسول الله ﷺ.

لأول مرة ينطق بلال..أشهد أن محمدا رسول الله..دون أن يوجد محمد رسول الله ﷺ..

وبصعوبة بالغة..صعد بلال على المسجد النبوي في المدينة، ليؤذن لصلاة الظهر..

وبدأ بلال يرفع الأذان وكأنه يرفعه لأول مرة في حياته..

الكلمات ثقيلة.. صعبة.. حزينة.

ويقطع بلال طريقا طويلا.. إلى أن وصل إلى ما لم يرد أن يصل إليه ..

أشهد أن محمدا رسول الله ..

عجز لسانه عن حملها.. وانخرط في بكاء مرير كما لم يبك في حياته.

ويحاول بلال مرة أخرى، لكن البكاء يعاوده، ولسانه يعجز عن النطق..

وللمرة الثالثة.. يعجز لسان بلال عن حمل حروف كلمات الشهادة، وهوالـذي تحمـل حجـارة

ينوء بحملها الرجال شهورا، تحت قيظ الحر اللاهب في مكة..

وغلب البكاء «بلالا»..حتى أنه أيقن بعجزه الكامل والأكيد عن نطق الشهادة، وأيقن معه المسلمون أن الخطب أكبر من أن يتحمله بلال.. فنزل دون أن يكمل الأذان..

إلا أن الأمر كان أبعد من نطق الأذان..

إن «بلالا» لم يتحمل أن يبقى في المدينة كلها..

لم يتحمل أن يبقى فيها بعد رسول الله ﷺ..

ويذهب بلال إلى أبي بكر بعد توليه الخلافة وهو حزين قائلا:

يا خليفة رسول الله.. إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أفضل عمل المؤمن الجهاد في سبيل الله» فقال له أبو بكر: فما تشاء يا بلال..؟

قال: أردت أن أرابط في سبيل الله حتى أموت.

قال أبو بكر: ومن يؤذن لنا؟

قال بلال وعيناه تفيضان من الدمع: إني لا أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ.

قال أبو بكر: بل ابق وأذن لنا يا بلال.. قال بلال: إن كنت أعتقتني لأكون لك فليكن لك ما تريد. وإن كنت أعتقتني لله فدعني وما أعتقتني له..

قال أبو بكر: بل أعتقتك لله يا بلال.. وسافر بعدها بلال إلى الشام.

وفي عام عشرين من الهجرة.. زار عمر بن الخطاب - خليفة المسلمين بعد أبي بكر - الشام، وتوسل له المسلمون وقتها أن يرفع بلال صوته بالأذان.

وصعد بلال وأذن.. فبكى الصحابة الذين كانوا أدركوا رسول الله ﷺ وبلال يؤذن له.. بكوا كما لم يبكوا من قبل أبدا.. وكان عمر أشدهم بكاء!!..

وتوفي بلال عن عمر يناهز بضعا وستين عاما ، ليلحق برسول الله ﷺ الذي لم يتحمل أن يبقى في المدينة بدونه، أو يرفع الأذان في غير وجوده..

الآن ترتاح يا بلال..

الآن تستطيع أن تؤذن.

* * *

دروس وتحليل

١ - الحوار مع النفس (الاتصال الذاتي) وسيلة تغيير مفقودة في حياتنا، نحتاجها بشدة لنصحح من أخطائنا (بلال يؤمن بالإسلام ويتغير من خلال حوار دار بينه وبين نفسه).

أسلم بلال بعدما أجرى حوارا مع نفسه يناقش معها ما قاله أمية بن خلف وأصدقاؤه عن الرسول ﷺ ودعوته، وكانت نتيجة الحوار أنه أقدم على خطوة الإسلام، ويعد بلال من القلائل الذين أسلموا دون دعوة مباشرة من الرسول ﷺ أو من الصحابة، رغم أنه عبد، من المتوقع أن يكون شخصية مهزومة وسلبية، وهو ما يفسر قوة الحوار الذاتي عند بلال.

يسمى الحوار الذاتي في علم الاتصال (الاتصال الذاتي)، وهوالحوار الذي يدور بين الشخص ونفسه، وهوأقوى أنواع الاتصال على الإطلاق، وهذا النوع بالتحديد من الحوار، هوالنوع المفقود في حياتنا، فمن منا يغلق على نفسه حجرته ويبدأ في حوار صادق مع نفسه، يراجع فيه حياته، ويقف عند تصرفاته وسلوكياته ويفند أخطاءه، ويفكر في نوعية أصدقائه؟ من منا يفكر في الخطأ والصواب، الحلال والحرام؟ من منا يحاور نفسه في العلاقة بينه وبين ربه؟ هل هي سليمة أم أن بها تقصيرا؟

الحوار مع النفس أقوى أسلحة التغيير عند الإنسان، حتى وإن توفر الشخص الذي ينصحك ويعلمك ويرشدك، فهناك أخطاء وأسرار لا يعلمها أحد إلا الله وأنت، وأنت الوحيد القادر على تقويم نفسك فيها.

٢ - الإسلام دين الحرية وليس دين القيود (بلال يشعر بالحرية بعد إسلامه رغم تكاليف الإسلام وأوامره).

هرب بلال من عبوديته لأمية بن خلف بالدخول في الإسلام، ولو كان بلال يعلم أن الإسلام ما هو إلا عبارة عن قيود جديدة، كتلك القيود التى يضعها عليه سيده أمية بن خلف، فلماذا أصر على الإسلام، وتحمل في سبيل إصراره عذابا يعرفه الجميع ؟ إلا إذا كان قد وجد الحرية المفقودة عند سيده وفي حياته القديمة.

إن الشباب يخشى أن يقترب من الدين؛ لأنه يظن أنه ضد الحرية، **ونحن نقول**: إن الإسلام ضد الانحلال، وليس ضد الحرية، فالحرية تعنى أنك قادر على التحكم في تصرفاتك وقراراتك، واتباع الشهوة يجعلك شخصا مسلوب الإرادة؛ غير قادر على اتخاذ قرارات أنت مقتنع بها تماما، ويجعلك مستمرا في فعل خطأ أنت تعلم تماما أنه خطأ، ولكنك مقيد بقيود الفتيات والسهر وأصدقاء السوء وتبذير الأموال.

إن الشخص المتمسك بدينه.. هوالشخص الذي يستطيع أن يقول: لا، وهوالذي يستطيع أن

يقف بجانب الحق لينصره وأمام الظلم ليرده ؛ لأنه حر من قيود الشهوة والسلطة والمال.

إن إسلامنا العظيم هو دين الحرية...حرية الأفراد وحرية الشعوب.

٣- الإسلام يساوي بين البشر جميعا ولا يفرق بين الناس بسبب اللون، والميزان عنده هو ميزان العمل والتقوى (بلال لا يشعر بأي تمييز بينه وبين الآخرين بسبب لون البشرة، والرسول ﷺ يغضب من أبي ذر الغفاري بسبب معايرته لبلال بأمه وبلون بشرته الأسود).

بلال كان عبدا أسودا.. أي إنه كان في وضع اجتماعى سيئ، وفي الوقت نفسه كان شكله مثارا للنقد والسخرية، فلقد كان أسود وكان نحيفا وطويلا ومجعد الشعر، وهذه الصفات الشكلية تجعله في المجتمعات الغربية العنصرية ، مواطنا من الدرجة الثانية، وتجعله في المجتمعات العربية عرضة للسخرية بين الحين والآخر، إلا أن «بلالا» لم يشعر بهذا ولا ذاك منذ لحظة دخوله الإسلام، ولم يعرف أن أهانه أحد من الصحابة بلونه إلا في موقف واحد فقط؛ هو موقف أبي ذر الغفاري عندما سب «بلالا» وقال له: يا ابن السوداء، وعندها غضب الرسول ﷺ غضبا شديدا، ورد لبلال حقه عندما قال ﷺ لأبي ذر: «إنك امرؤ فيك جاهلية».

ولقد رفع الإسلام « بلالا» في مواقف عدة، مرة عندما اختار الله الحبشة ليهاجر إليها المسلمون، ومرة عندما كان بلال أول من يرفع الأذان في المدينة،ومرة عندما كان أول من رفع الأذان في مكة.

إن الإسلام لا ينظر لشكل الإنسان.. ولا يعنيه ذلك في شيء، فما ذنب إنسان في خلقته، أهو خلق نفسه؟! الإسلام يعلم أن الإنسان ليس مسئولا عن خلقته، وإنما هو مسئول عن أعماله، وهذا هو قمة العدل والمساواة بين البشر.

٤- التكافل الاجتماعى يعمق مشاعر الود والمحبة بين الفقراء والأغنياء (أبو بكر ينفق من ماله ليعتق المسلمين من أسر العبودية).

حرص الأغنياء من الصحابة على التفكير في الفقراء، ولم ينظروا إلى مالهم على أنه ملك خاص لهم، لا ينبغى أن ينفقوا شيئا منه على الفقراء، فها هو أبو بكر الصديق يأخذ على عاتقه أن يحرر العبيد الذين يقعون تحت وطأة التعذيب؛ لينقذهم من هذا الهلاك اليومي، فأعتق ستة من المسلمين كان سابعهم بلال بن رباح.

إن قيام رجال الأعمال والأثرياء بأدوار اجتماعية في المجتمع، تقرب الفوارق بين الطبقات، وتعمق مشاعر المحبة والود بين الأغنياء والفقراء، وينشأ مجتمع مترابط قوي متحاب، لا تهزمه الشدائد، ولا تنال منه المؤامرات والمكائد.

٥- التواضع عند التقدم للزواج يرفعك ولا ينقصك، ويحمى الزواج من وقوع الخلافات منذ البداية (بلال وأخوه يتواضعان لأهل العروس عند تقدمهما للزواج).

تواضع بلال كأشد ما يكون التواضع عند التقدم للزواج هو وأخوه، فعرف نفسه وأخاه بأنهما كانا عبدين ضالين فهداهما الله.

إن بعض الشباب عند التقدم للزواج، يفكر في الطريقة التى يذكر فيها مميزاته بصورة قد يكون مبالغا فيها ، وربما يظهر فيها الغرور والتعالى، وإن كان من الطبيعى أن يذكر المتقدم إمكاناته ومميزاته، إلا أنه من المرفوض أن يكون ذلك بتعال وتكبر، يستصغر بهما أهل العروس أوالعريس، فهذا التعالى يجعل الأمر من بدايته يأخذ خطا يبتعد عن المودة والرحمة -وهما الصفتان اللتان وضعهما الله شرطا للزواج الناجح - ويفتح الباب للكلام الذي يبدأ في دس بذور الخلافات بين الأهلين.

٦- حفظ الجميل..فضيلة لا يجب أن تمحوها السنين (بلال لم ينس فضل أبي بكر عليه، ويفضله على نفسه أمام الناس).

تذكر بلال ما فعله أبو بكر من أجله بعد سنوات من عتقه، فعندما وصل إلى مسامعه أن بعض الناس يفضلونه عليه، انزعج، وقال في تواضع:إنما أنا حسنة من حسناته.

إن الجميل لا يجب أن تمحوه السنوات، والعطاء في المجتمع قيمة كبيرة، لابد أن تذكر ولا تنسى، مهما طال الزمن.

* * *